الرهانات المعرفية للدرس الأدبي المقارن

ط.د/ بلقناديل حليمة

جامعة جيلالي اليابس –سيدي بلعباس.

اتجه الأدب المقارن اتجاها قوميا تاريخيا بهدف كشف الإسهامات التي يقدمها الأدب القومي الواحد في تطور غير من الآداب القومية، وارتباطه بالنزعة التاريخية القومية، ومن هذا المنطلق يعمد على إثبات هويته القومية ومكانتها، والحرص على دراسة التفاعل بين الآداب وتوثيق التفاعل بالوقائع التاريخية، انطلاقا من خلفيات انساق ثقافية مختلفة في الدراسة والبحث باعتباره عمل إنساني جمالي يهتم مجموع الأعمال المختلفة من نقطة التشابه والاختلاف بوصفه عملا إنساني جمالي.

أهمية الأدب المقارن:

للأدب المقارن أهمية خاصة ميزته عن باقي العلوم الأدبية الأخرى، والتي تكمن في دعم الشخصية القومية الخاصة بكل أمة والاهتمام بالنتاج الفكري، والأدبي والعلمي، وكل ما هو دخيل من مختلف التيارات والمذاهب الأدبية بحيث يكشف مجموع **"التيارات الفكري والثقافية المفيدة التي تساعد على إثراء أدب من الآداب"**[1] ودعم التبادل الثقافي ودراسة علاقة التأثير والتأثر بين مختلف الآداب رغم اختلاف اللغات فيما بينها وتبيان أصالته التراثية والقومية وتحديد العنصر الدخيل بحث تكون للدراسات المقارنة الدور الأهم في التخفيف من حدة التعصب للغة والأدب القومي والاطلاع على مختلف الآداب باعتبار أن الأدب المقارن يمثل نقطة التواصل بين مختلف الآداب القومية ووسيلة لبلوغ العالمية والعمل على **"تمييز ما هو قومي أصيل وما هو أجنبي دخيل من تيارات الفكر والثقافة عن طريق تلاقح الآداب فيما بينها وتبيان عناصر التداخل والتقارب مع بعضها البعض، وكسر نظرت الاستعلاء والاكتفاء الذي لوحظ على المواطن الانجليزي الذي حركت فيه غيرته الوطنية فدفعته إلى تحدي الأديب الأمريكي محاولا إثبات تميزه وتفوقه"**[2].

كما لا ننسى دور الأدب المقارن في دعم بعض العلوم الأدبية كالنقد الأدبي وتاريخ الآداب، ذلك أنه عمل على تحقيق الترابط بين مختلف العلوم والاهتمام بالدراسات الأدبية وتطويرها لتشمل جميع المعارف والتخصصات، وإبراز قيمة الأدب القومي ونتاجه الفني، كعلم قائم بذاته لإثبات مجموع الصلات والروابط لما فيها من تأثير وتأثر وتبادل الفنون الأدبية المتعاقبة عبر مختلف العصور.

كما تكمن أهمية الأدب المقارن في دعم الآداب الأجنبية وازدهارها داخل الوسائط المعرفية المختلفة والاهتمام بها ورفعها إلى مستوى العالمية عن طريق تجاوز القومية إلى مجموع الآداب المختلفة، فالمتتبع لتاريخ الآداب نجد ذلك التواصل والترابط الخفي بينهم رغم اختلاف البيئة واللغة **"فدراسة الصلات العامة بين الآداب تكمن في أهمية اللقاح الأجنبي في إخصاب الأدب القومي وتكثيف ثمراته "**[3] ذلك أن الأدب المقارن يمثل أحد أهم الأسس التي تدعم المعارف العلمية لتشمل اكبر عدد من التبادلات الأدبية والفكرية والمعرفية، وتوسيع المجال وفتح الغموض الذي يغطي بعض الأعمال الأدبية.

شروط الأدب المقارن: يقف الأدب على مجموع من الأسس والمبادئ التي تدعم الدرس المقارن خصوصا في يخص المجال التطبيقي، فالباحث يقف عند الحدود المشتركة للآداب المختلفة وتأمل صلاتها بعضها ببعض، لهذا على باحث الأدب المقارن أن

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

يكون واسع الأفق قادرا على الغوص في الدراسات العلمية، لهذا حدد الأدب المقارن شروط يقف عليها في تثمين بحوثه التطبيقية ودراسة مواطن التلاقي بين الآداب، وبما أنه نوع من الأدب الوصفي استدعى أن تتوفر فيه مجموعة من الشروط منها :

- أن ميدان الأدب المقارن أدبا لأمتين مختلفتين بدراسة مواطن التلاقي بين الآداب المختلفة.

- وأن يكون كل أدب مكتوبا بلغته القومية، وصلته التاريخية في حاضرها وماضيها ودراسة العلاقات الإنسانية بين الشعوب في مختلف مظاهرها فمثلا إذا أردت دراسة أدب من الآداب لا بد من دراسة صلاته التاريخية .

- أن يسلط الضوء على الظاهرتين موضوع المقارنة وجمع معلومات كافية ودقيقة حول الموضوع و"**الإلمام بالمراجع العامة ومن يريد دراسة الصلات بين الأدب العربي والفارسي عليه أن يبحث فيما يخص اللغة العربية ونصوصا في كتب الأدباء والمؤرخين الذين كتبوا بالعربية والذين هم من أصل فارسي كالطبري ، وابن المقفع، والأصفهاني** "[4].

- دراسة أوجه الشبه الاختلاف إذ أنه" **لا يجوز مقارنة ما لا يقارن، والتعرض للجوانب الأكثر عمقا، وتجنب المقارنة السطحية، وعقد المقارنات الجادة والعميقة، وكشف طبيعة النص المدروس**"[5] بإتباع الظاهرة الأدبية وكشف مواطن التلاقي والنفور في موضوع الدراسة وتوسع نظرت الأدب لتشمل رؤية شاملة في تناول الأفكار الأدبية وتبيان عناصر الذوق الجمالي .

- تحديد عامل الزمان والمكان إذ لابد من التقيد به لأن " **تحديد الوقت الذي يلعب دورا كبيرا، في إبطال كل مقاربة مضللة وهو ضروري جدا ودقيقا إلى أبعد ما يمكن، إذ أنه ليس بكاف أن تعلم متى نشر هذا الديوان أو ذاك، بل علينا أن نعلم في أي تاريخ رأت كل قصيدة النور**" [6] من أجل دراسة مقارنة دقيقة .

بين الأدب المقارن و الآداب القومية :

يمثل الأدب أحدى أهم الأوجه التي تعبر عن الروح القومية، فبتالي هو بمثابة تعبير عما يدور داخل الفرد والمجتمع لهذا جاءت الدراسات الأدبية المقارنة للاهتمام بالأدب القومي والبحث عن سبل التواصل الداخلية مع بقية الآداب، وتقوية أواصل الروح الإنسانية لهذا يتعين على دارس الأدب المقارن أن "**يرصد التأثير ويتبعه بالوصف والتحليل لأنه لكل أدب قومي دور هو الآخر في تتبع الظاهرة الأدبية داخل أي مجتمع كان ولكل أدب قومي وعمل أدبي قيمته الجمالية في إطار محيطه الأدبي**"[7].

اهتم العديد من المقارنين بدراسة علاقة التأثير والتأثر بين مختلف الآداب الأوروبية وتبيان طرق التواصل فيما بينها انطلاقا من تعاليم المدرسة الفرنسية في تطبيق مناهج الأدب المقارن هذا ما لوحظ داخل المجال المعرفي الواحد، فلا ننسى تلك التأثيرات التي جمعت بين بعض الكتاب اختلفوا في بيئاتهم وفي عقلياتهم وآدابهم إلا أنهم جمعوا تحت دراسة واحد من أمثال أحمد شوقي وشكسبير في مسرحية مجنون ليلى ، فهذه التأثيرات تمثل مادة خام في دعم أواصل الدرس الأدبي المقارن وتركيز أسسه العلمي الذي يسعى إلى تطوير الآداب القومية وبحث سبل التلاحق الأدبية والفكرية ودراسة مواطن التلاقي بين الآداب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لهذا اهتمت و"**دخلت الدراسات المقارنة إلى عالم الدراسات النقدية والأدبية والعربية وأصبحت جزء من منظورنا النقدي والفكر الفلسفي، بعد أن أصبحت عوامل التأثر متنوعة وغير مباشرة أحيانا**"[8] فالكثير من النقاد ابعدوا عملية التأثير والتأثر بين الآداب ناتج عن عملية تعصب لبعض الآداب القومية .

دخلت الدراسات الأدبية المقارنة عالم الدراسات النقدية، إذا أصبحت الغاية منها ضرورة ملحة في مجال التقييم والنقد، إذ صار الحس المقارن طاغ نوعا ما في مجال الدراسات الأكاديمية في دراسة مختلف الآداب القومية وإخراجها من عزلتها والتوجه نحو العالمية، فدارسة علاقات التأثيرات والبحث عن الصلات التاريخية بين الآداب وأبطال صفة الاكتفاء الذاتي بين الآداب القومية بدراسة عملية التواصل الأدبي، وعليه تعمد الدراسات المقارنة إلى التشبع بالروح القومية والانفتاح نحو الآخر ودعم البعد الإنساني داخل مختلف المعارف الأدبية والفكرية ،"**فما يقال عن الأدب كنص، يمكن أن تقوله عن الأدب المقارن كعلم من العلوم الإنسانية، فمهما أوغل في عالميته فهو يحمل داخله مفهوما قوميا فالعالمية والقومية معا، يتدخلان في مفهوم الأدب المقارن، فهو يبدأ مكتوب بلغة القومية**"[9] عن طريق دراسة علاقة النصوص فيما بينها كنص كتب بالغة العربية وآخر كتب باللغة الفرنسية، للبحث عن أوجه التفرد عند كل أديب وتجاوز الخصائص اللغوية والبحث عن ما هو مشترك بين الآداب الإنسانية لتتوسع دائرة الدرس المقارن لتشمل مجال أرحب. وبيان لأسس وعلاقة الآداب القومية ببعضها والبحث عن أصول الآداب المختلفة وصلاتها التاريخية المعقدة، لهذا نجد بعض الغموض في تتبع بعض الأعمال الأدبية وبداياتها الأولى"**فما أكثر ما أشير إلى أثر كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة وغيرها في نشأة القصة القصيرة في الغرب، فنحن نعرف أن لافونتي la fontaine الشاعر الفرنسي قد عرف قصص كليلة ودمنة وعرف حكايات وأنه تأثر بها في قصصه الشعري les fables التي أجراها على لسان الطير والحيوان**"[10] فهذه التأثيرات بمثابة مادة أولية خام تشكلت ضمن الأعمال الأدبية.

فنشأة الأدب المقارن لم يأتي نتيجة لتطور تاريخي وحضاري بل جاء من داخل الجامعات الغربية منقولا على يد النقاد من أمثال الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه الأدب المقارن ليتمثل الأدب المقارن كمنهج خاص في ميدان المعرفة الأدبية يشترك مع سائر مناهج التقرب الأدبي كالتاريخ الأدبي والنقد ودعم أسس التواصل الأدبي والتبادل الثقافي خارج الحدود المحلية "**فالدور الدينامي الذي يقوم به الأدب المقارن في مجالات التنوير والتفتح الذهني والاستمتاع الفكري والأدبي من جهة، وفي الموازنة من جهة أخرى بين مقتضيات الانتماء القومي والوطني واللغوي والأدبي وتطلعات الانطلاق إلى الآفاق الإنسانية الوحيدة والتفاعل مع المناخ العالمي المعاصر**"[11] عن طريق تجاوز النظر الضيقة بتوسيع منطقة البحث داخل الأدب المقارن والسير نحو تبادل وتلاقح ثقافي متكامل بدعم الدرس الأدبي المقارن انطلاقا من الحدود القومية، وتحديد بعض النماذج الأدبية ومقارنتها بغيرها لتوضيح مدى قربها أو بعدها عن الواقع الاجتماعي "**هذا فضلا عن عقد مقارنات بين آداب وثقافات شعوب مختلفة، فلقد أجرت جانيت وولف العديد من المقارنات حول نماذج مختلفة من الآداب العالمية، كالأدب الروسي والأدب الأوروبي والأدب الأمريكي لبيان الصلات الوثيقة بين الآداب والأيديولوجية** "[12].

قطع الأدب المقارن شوط في الاهتمام بالآداب القومية ولما قدمه من دراسات تطبيقية التي بحثت عن سبل التأثير والتأثر وذكر أوجه التشابه والاختلاف وتأسيس لعلاقات بين الآداب المختلفة كما ذكرنا آنفا ليتبين لنا أن الأدب القومي قبل أن يصبح ضمن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الآداب العالمية هو استجابة لحاجة الوطن القومية، **وتعبير** ذاتي عن حالة نفسية إذ لابد أن تنفي هذه الحدود الذاتية والغوص ضمن القالب العالمي، والتوجه نحو الذوق الجمالي العالمي.

الأدب المقارن لا يتوقف عند ما تعني به نظرية السرد في منطوق الجدل المستجد، فهو أيضا يبحث في نصوص ترمي نفسها كلا في ميدان الآخر، تقلده وتحاكيه فدراسات ما بعد الحداثة استدعت البحث في كل شيء تفكيكة وتبيان أصوله المعرفية وإخراج خفايا النص الغير ظاهرة والتعامل معه بوعي حداثي[13] ذلك أن الأدب المقارن يدخل ضمن اهتمامات ما بعد الكولونيالية للوعي بمجموع الثقافات والهويات المختلفة ودراسة العالمين الشرقي والغربي ضمن الخطاب الأدبي المعاصر فالعديد من الأعمال تبنت هذا الموقف واهتمت بالذات الخاصة تثمينه أو ترديها نحو الأسفل "**فمثل هذه الخطابات تبين خطورة الموقف، فهو يستلب لسان الشرقي بعد توظيفه لخدمة الشأن الآخر، أي الخطاب الإمبراطوري المهيمن، ومثل هذه الانتباه ليست الوحيدة في الأدب المقارن فهو يتسع لملاحظة الأصداء والاتجاهات والمفاهيم والشخوص والتيمات الأصلية...**" [14]

فاهتمامات الأدب المقارن صار أوسع لتشمل مجالات أكثر من الدراسات الأدبية والنقدية.

فالأدب المقارن يمثل مجال خصب في تبني النصوص والتطلع إلى الآخر وتقديم دور مهم في مجال التنوير والتفتح والرقي الفكري والأدبي والموازنة بين مقتضيات الانتماء القومي واللغوي والأدبي، والتطلع لدراسات أرحب ودعم الآفاق الإنسانية و التفاعل مع المناخ العالمي ككل .

فالبعد الإنساني للأدب المقارن شكل فرق في تقبل الآخر وتطور الدراسات الأدبية والنقدية، ذلك أنه تجاوز المفهوم الضيق في الاهتمام بالظاهرة الأدبية وتجاوز القومية كما ساهم في تشكل الجانب الفني أو الجمالي في فهم العمل الأدبي وبناء نوع من التوازن المعرفي بين الآداب والثقافات المختلفة و"**تناول الصلات العامة بين الآداب ولكنه لا غنى له من النفوذ إلى جوانب كل أدب ليتبين فيما هو قومي وما هو دخيل، فالأدب المقارن يرسم سير الآداب في علاقتها بعضها لبعض وشرح خطة ذلك السير، ويهدي إلى تفاهم الشعوب وتقاربها في تراثها الفكري**"[15].

فالفكر الإنساني يمثل نقطة بدأ العلاقات الأدبية فيما بينها، ورسم مبادئ التلاقح الأدبي لإنشاء نوع من الحوار الثقافي بين مجموع الثقافات فالأديب بطبيعته يعمد على ترصد الآخر وتتبعه لإنتاج نوع من الحوار والمحاكاة بين مجموع الدراسات فيما بينها.

فالأدب المقارن على نحو ما ذكرنا له دور في التواصل المعرفي بين الشعوب وتقريب المسافات والاتجاهات الفكرية والأدبية للوصول إلى فهم المشترك وتمازج المعارف الإنسانية في حيز واحد، باعتبار أن الأشكال الأدبية تدعم بعضها البعض في التطور الثقافي الذي يطر على الجماعات المختلفة، ذلك أن الآداب القومية تشكل هي الأخرى دور في دعم الآخر، والتنحي عن التفكير الذاتي ومواجهة سلطة التحيز انطلاقا من الدرس الأدبي المقارن في إتباع مناهجه وشروطه المدروسة في تتبع الظاهرة الأدبية وتمثيل الطرف الآخر.

دخول الأدب المقارن ضمن مجال واهتمامات الدراسات الأدبية والنقدية لتناوله مختلف الآداب بدراسة صلاتها التاريخية ودعم التبادل الثقافي خارج حدود الأدب الواحد والوعي بالآخر، والبحث في أنساق الخطابات والتعامل معها بوعي حداثي، باعتبار أنه ضمن مجال الدراسات الحديثة والاهتمام بالثقافة والهوية لما جاء به الخطاب المعاصر .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش:

1- طه ندا :الأدب المقارن، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص 10.

2- المرجع نفسه، ص 27.

3- غنيمي هلال: الأدب المقارن ، نهضة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2008، ص 19-20.

4- المرجع السابق، ص 80.

5- https://vb.ckfu.org/attachement

6- فان تيغم، الأدب المقارن، تر: سامي مصباح الحسامي، منشورات المكتبة العصرية صيدا، بيروت لبنان، د.ت ، ص57.

7- أحمد شوقي عبد الجواد رضوان، مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن، دار العلوم العربية، ط1، بيروت، لبنان، ص 36-37.

8- حلمي بدير، الأدب المقارن (بحوث ودراسات)، دار الوفاء للطباعة والنشر، إسكندرية، مصر، 2001، ص 607.

9- المرجع نفسه، ص 609.

10- المرجع نفسه، ص 610.

11- حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، دار الفكر المعاصر ،ط2، بيروت ، لبنان، 1999، ص05.

12- حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن (المنطلقات، المرجعيات، المنهجيات)، دار العربية للعلوم، ط1، العاصمة، الجزائر، 2007، ص221.

13- محسن جاسم الموسي، النظرية والنقد الثقافي (الكتابة العربية في عالم متغير واقعها سياقاتها وبنائها الشعوري) المؤسسة العربية للدراسة والنشر، د.ط، بيروت، لبنان، 2005، ص 72.

14- المرجع نفسه، ص 72.

15- محمد غنيمي هلال، دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر، د.ط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د.ت، ص 25.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com